قصة قصيرة

الغريبة

بقلم : متولي أحمد الشافعي*
مصر

(١)

أسير بجواره، قدمي صغير بجانب قدمه، أقدام كثيرة تركناها خلفنا، المشاية اغتسلت بندى الصباح، وبقع كبيرة تتماوج في السماء، كندف القطن، وتتسلل بين الفروع والأغصان، على أوراق الشجر المنتصب على الجانبين ترتاح، ثم ينساب الندى كحديث أبي، أمسح ما يقع فوق رأسي، وأنا أتابع كلماته، الغريبة كالوباء، أمام أحد الحقول أنتصب، تأمل أشجار القطن، برقت عيناه وقفز، ثم عاد بعد أن نزع إحدى الأشجار وأعطاني إياها، الغريبة عاقر، لوزتها كلها بذور، لا تنتج قطنًا، سافرت العينان عبر الحقول، أشجار القطن، تهتز بدلال، ونسيم الصباح يداعبها، وعيون أبي ترافقها، أشار نحوها .. النوارة الصفراء، فاقع لونها، تسر الناظرين، والغريبة كالوباء، وكنا قد وصلنا إلى الساقية، على مدارها جلسنا، ولما تجمع الرجال، هم أبي أمامنا، وتبعه الباقون كل منا اصطحب خطا، وكان بجواري يبتسم وأنا أنزعها، نوارتها بيضاء، أرضنا تلفظها، فتخرج في يدك مع الجذبة الأولى، وكانت الشمس أمامنا، نراها وترانا، ثم راحت ترتفع عنا، ولما اعتلت رؤوسنا، احتضنتنا شجرة الصفصاف، حول الطعام التففنا، وكان إبريق الشاي يئز فوق راكية النار، وطقطقات علب الصفيح تتوالى بعد أن أخرجت من مخابئها، العلبة في حجم الكف، أخرج كل واحد منها ورقة رقيقة بيضاء راح يلفها بين أصابعه بمهارة وهو يخنقها بعد أن حشاها بقليل من التبغ، ونفث الجميع دخانًا أسود.

(٢)

كان صوت الآلة البخارية يتهادى من بعيد، ولما حاذانا، أوقفها ونزل المهندس من فوقها، وهو يرفع الطاقية من فوق رأسه، والتي تشبه طاقية الجنود، وإن اختلف لونها، نهض الرجال وصبوا شايًا ساخنًا، شكرهم وحياهم على تعاونهم وإخلاصهم في مقاومة الغريبة ثم قال: وهو يرتشف الشاي، إنه يعرف هذه القرية منذ زمن بعيد، وإنه يحب ناسها منذ أن تعرف بهم، مقعد واحد ضمني أنا وهو، انقطعت أنفاسنا من اللهاث خلفه، ولم نلحق به، عرفناه الأول دائماً، في مدرسة المحلة الثانوية، محمد الشافعي، اسمه في قلوب كل من عرفوه، فاغرورقت عينا أبي بالدموع، وابتلع المهندس بقية الحروف، وهو ينظر نحو أبي، قال فنداوي: هذا أبوه، أما محمد فهو هناك، الجسد شاهد هناك، هكذا أراد بعد عمليته الناجحة داخل معسكر العدو، ومن بين شهقات أبي، تناثرت الكلمات، ولن يعود، حتى يقتلعها، حلمه الكبير أن ينزعها، ربت المهندس على صدره وقبّله بين عينيه، ارتعشت أصابع أبي وهي تعبث في جيوبه، ثم استقرت على شمال الصدر، ومن جيب الصديري الصغير، استخرج صورة أخي، بملابس الميدان قابضًا على الزناد ما يزال.

وتصلبت عينا المهندس على الزناد ثم قال: هيا يا رجال حتى نقتلعها! واتجه الجميع نحو الحقول.

ولما تراجعت الشمس نحو الغرب، أشارت لنا بأشعتها الحمراء، فرحنا نكوم الغريبة في مكان منخفض من الأرض، والتف الجميع حولها، وأشعل أبي النار فيها، وكان دخان الغريبة يتصاعد في الهواء بينما كانت الرؤوس ترتفع وترتفع حتى لامست السماء. ■

* كلية اللغة العربية بالزقازيق ، جامعة الأزهر.